الإستشراق والفن–جدل الآخر بالآخر–

Orientalism and art - the controversy of the other with the other-

د. ميم نسرين لطيفة

جامعة أمحمد بوقرة –بومرداس، الجزائر، mimelatifa1981@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/10/26 تاريخ القبول: 2025/11/13 تاريخ النشر: 2026/06/06

ملخص:

قد اتجه عدد من المفكرين والباحثين الغربيين إلى دراسة حضارة الشرق وتراثه وثقافته، وما يرتبط بها من جوانب فكرية وفنية واقتصادية وسياسية وغيرها. ويُعدّ الاستشراق أحد أبرز التيارات الفكرية التي برزت بقوة في القرن التاسع عشر، إذ استأثرت الدول الإسلامية باهتمام واسع من قبل العديد من الباحثين ذوي المناهج والرؤى المتنوعة.

وقد تناول هؤلاء الدارسون موضوع الشرق من زوايا مختلفة، فانبهروا بكل ما هو شرقي، ورأوا فيه عالمًا من الحرية والغموض والعاطفة، ومسرحًا يعج بالمشاعر الجياشة، حيث العنف والقسوة يمتزجان بالألوان الزاهية وروائع الحياة الباهرة.

كلمات مفتاحية: الاستشراق؛ الفن؛ الشرق؛ الغرب.

Abstract:

A number of Western thinkers and scholars turned their attention to studying the civilization, heritage, and culture of the East, along with its intellectual, artistic, economic, and political aspects. **Orientalism** emerged as one of the most prominent intellectual movements of the nineteenth century, as **Islamic nations** attracted wide interest from many researchers with diverse approaches and perspectives.

These scholars explored the East from various angles, becoming fascinated by everything Eastern. They viewed it as a realm of freedom, mystery, and emotion**,** a stage filled with overflowing feelings**, where** violence and harshness intertwine with vivid colors and the splendor of life.

Keywords: Orientalism; art; East; West.

1. مقدمة:

الحديث عن الإستشراق بصفة عامة، لا يخلو من محاذير كثيرة ومتشعبة في كل جوانبه، ومن هؤلاء "ادوارد سعيد" في كتابه المعروف (الإستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء) الذي هز سمعة هذه المعرفة الإستشراقية تاريخاً، وشخصيات، وأحداثاً، وفنّد بالأسلوب العلمي الكثير من الأغراض والأهداف السلبية لنشاطه ومنهجيته.

ومن الحق أن أذكر أن التعميم والمبالغة في كل أعمال المستشرقين وربطهم بالاستعمار والتنصير والتبشير، لا يستقيمان مع العدل والموضوعية... ناهيك عن المنهجية والعلمية في الطرح والمناقشة، وتنفيذ الرأي المختلف استرشاداً بقوله تعالى:﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾*.

ومن هنا ينبغي أن نميّز بين الاستشراق الأيديولوجي المتحيّز الذي اتّسم بعدم الإنصاف، والاستشراق العلمي الموضوعي الذي أسهم في تقديم إنجازات قيّمة لخدمة تراثنا وتاريخنا وإبراز روائع حضارتنا، وهي جهود لا تزال موثقة ومكتوبة وشاهدة على الإخلاص والتفاني والموضوعية.

2. ماهية الاستشراق:

1.2 مفهوم الإستشراق:

كلمة الإستشراق مشتقة من الشرق، تعني الكلمة مشرق الشمس، وترمز إلى الاهتمام بهذا الجزء من الكون، أي الشرق بما يزخر به من علوم ومعارف وخصائص حضارية وثقافية متنوعة. ويُطلق المستشرق على الشخص الذي كرّس جهده واهتمامه لدراسة ما يتعلق بالشرق في مختلف المجالات. وفي المقابل، نجد كلمتي مستغرب واستغراب، وهما تعبّران عن الاتجاه نحو الغرب إعجاباً به، أو تقليداً له، أو دراسةً لثقافته وحضارته.[1]

أما إذا أضيف إليها الألف، والسين، والتاء تعني طلب الشرق، فإن معناها طلب علوم الشرق وآدابه وأديانه بصورة شاملة، هذا بالنسبة للغة العربية، لكن البعض من الباحثين في مجال الإستشراق يرون أن معناها في اللغات الأوروبية يختلف اختلافاً بيّناً عن التعريف السابق، عند بعض الباحثين الغربيين، لا يُقصد بـ"الشرق" المكان الجغرافي فحسب، بل يحمل معنىً أعمق يرتبط بمفهوم الشروق، الضياء، النور، والهداية. هذا المفهوم هو ما تناولَه الباحث سيد محمد الشاهد في تعريفه للاستشراق، مستندًا إلى المعاجم الغربية. حيث يرى أن مصطلح الاستشراق لا يقتصر على الإشارة إلى المشرق الجغرافي فقط، بل يشير إلى "مشرق الشمس"، ما يمنحه دلالة معنوية تعبر عن الشروق، النور، والهداية، على عكس الغروب الذي يدل على الزوال، الانتهاء، والغياب. وقد استند السيد محمد الشاهد في بحثه إلى المعاجم اللغوية الأوروبية (الألمانية، الفرنسية، الإنجليزية) ليدرس كلمة "شرق"، فتوصل إلى أن منطقة الشرق المقصودة في الدراسات الشرقية يُشار إليها بهذه الكلمات ذات الدلالات الرمزية. «تتميز بطابع Orient وتعني بلاد الصباح، ومعروف أن الصباح تشرق فيه الشمس، وتدل Morgenland معنوي وهو هذه الكلمة على التحول من المدلول الجغرافي الفلكي إلى التركيز على معنى الصباح الذي يتضمن، وتعني بلاد المساء لتدل Abendland معنى النور واليقظة».[2]

أما في قاموس أكسفورد فيحدد المستشرق Orientalist بأنه من تبحّر في لغات الشرق وآدابه وعلومه.

مع دخول أوروبا العصر الحديث، وبفعل الاكتشافات الجغرافية والثورة الصناعية، أصبح مصطلح **الاستشراق** أكثر اتساعًا وفضفاضةً إلى حد ما. فقد استولى الأوروبيون، مدفوعين بالنزعة الاستعمارية(Colonialism) ، على العديد من البلدان العربية والإسلامية في أفريقيا وآسيا، ما دفعهم إلى توسيع نطاق دراساتهم لتشمل لغات وحضارات متعددة مثل

الهند والصين واليابان وأندونيسيا وغيرها. وبالتالي، توسع مفهوم الاستشراق ليشمل دراسة لغات وحضارات هذه الشعوب، مما أدى إلى نشوء مصطلح أدق وأضيق ضمن إطار الحركة الاستشراقية الكبرى، وهو مصطلح الاستعراب (Arabisation) ، الذي يُعنى بدراسة اللغة العربية وحضارة العرب.. ويطلق على جملة الدراسات التي يقوم بها جمهور الباحثين من المستعربين اسم (الدراسات العربية).[3]

غير أن المستشرق المعاصر المثير للجدل (برنارد لويس) له رؤية مختلفة في تحديد مفهوم الإستشراق حيث يرى أن «كلمة الإستشراق تستعمل في مفهومين فقط، الأوّل يعتبر الاستشراق مدرسة من مدارس الرسم، حيث قام عدد من الفنانين، معظمهم من أوروبا الغربية، بزيارة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، ورسموا مشاهد مستوحاة مما شاهدوه وما تخيلوه عن هذه المناطق، وذلك بطريقة رومانسية. المفهوم الثاني وهو المفهوم الشائع أكثر، ولا علاقة له بالمفهوم الأوّل، بل يُعدّ هذا الفرع أحد الفروع الأكاديمية التي نشأت مع عصر النهضة .فقد كانت المدرسة الهيلّينية تُعنى بدراسة الحضارة الإغريقية، بينما اهتمّت المدرسة اللاتينية بالحضارة الرومانية، وركزت المدرسة العبرية على دراسة اللغة العبرية وتاريخها. وتُعرف المدرستان الهيلّينية واللاتينية معًا باسم الدراسات الكلاسيكية، في حين تُعرف المدرسة العبرية بـ الدراسات الاستشراقية. ومع مرور الوقت، بدأ الاهتمام يمتد ليشمل لغات وثقافات أخرى.[4]

على الرغم من اختلاف الآراء حول تحديد مفهوم الاستشراق بشكل دقيق وثابت، فإن المعنى الجامع لهذا المصطلح يتمثل في دراسة الشرق ومعرفته وفهمه، وهو القاسم المشترك بين جميع التصورات والبحوث التي تناولت موضوع الاستشراق واستعرضت مجالاته ونتائجه.

ويقترب من هذا المفهوم تعريف "عدنان محمد وزان" في كتابه (الإستشراق والمستشرقون... وجهة نظر) حيث يرى أن الإستشراق هو مصطلح عام يُطلق على التيار الفكري الذي يهتم بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بشكل عام، وبحضارة الإسلام والعرب بشكل خاص. فلم يحدد "وزان" المنطقة التي تنبع منها هذه الدراسات ولا المكان الذي يخرج منه هؤلاء الدارسون.

ولا يُقصد من تجاهل تحديد الجهة أو المكان إدخال العرب غير المسلمين فقط، بل يشمل ذلك جميع الشرقيين غير المسلمين أيضاً. فالمعرفة اليوم لم تعد حبيسة جهة معينة، بل انتشرت شرقاً وغرباً، ولم يعد الاهتمام بدراسة المسلمين وعلومهم مقتصراً على العلماء الغربيين أو جامعاتهم ومعاهدهم. فقد شهد الشرق الأقصى بدوره تطوراً ملحوظاً في جامعاته ومراكزه البحثية نحو دراسة المسلمين وثقافتهم وعلومهم وآدابهم وتقاليدهم وحتى أساطيرهم.[5]

وعندما توسعت الدراسات في هذا الجانب وتشعبت مجالاتها، واقترب العالم أكثر من بعضه البعض نشأت كراسي بالجامعات الغربية كمراكز بحثية معنية بتخصصات متعلقة بعلم واحد أو أكثر من علوم الشرق، ومنها العلوم العربية والإسلامية، وصار الأساتذة يسمون أنفسهم فقهاء لغة، مؤرخين، وعلماء تاريخ... يتعاملون مع موضوعات الإستشراق، كذلك بدأت مصطلحات جديدة تظهر وتبرز في أكثر الجامعات الغربية بدل مصطلح الإستشراق مثل اختصاصي بالشؤون الصينية، أو الهندية أو الإيرانية أو العربية، وبالتالي تصبح الكلمة أكثر تعبيراً وتحديداً للمنطقة التي يدرسها الباحث ولموضوع الدراسة.

بالنسبة لاصطلاح الدراسات العربية (Arabist) أي المستعرب، فقد خضع لعملية إعادة تعريف لدلالة هذه الكلمة[6]، وإذا صح هذا التعليل في توظيف هذا المصطلح بالنسبة للدراسات العربية « فإن كلمة مستعرب أجدر بأن يوصف بها هؤلاء الذين تخصصوا في دراسة حضارة العرب والمسلمين، ويكون لفظ المستشرق قد تعيّن لكل من درس الشرق عموماً

سواءً درس الإسلام وغيره من الديانات الأخرى، وسواء درس العرب أو غيرهم من الأمم الأخرى. والحقيقة أنه رغم ما عرف به الباحثون المستشرقون فإن في نظري تظل كلمة المستشرق تدل على دلالتين: أكاديمية، وهي ما تناولها الباحثون الذين أشرت إليهم، وعامة وهي كل من تعرض لحضارة العرب والمسلمين بالدراسة الخاصة»[7].

وقد يكون هذا التعريف الجديد مناسبا لهذه المرحلة الجديدة من الاهتمامات التي تطرح بصفتها أكثر دقة للإستشراق المعاصر وخاصة في المجال الأكاديمي وغيرها من الدراسات المتخصصة.

غير أنه من الدقة العلمية التفريق بين يُقصد بمصطلحي الاستشراق والاستعراب أن الاستعراب يتركز أساساً على الاهتمام بالعرب أنفسهم، إذ لا يمكن دراسة غير العرب بعد البعثة المحمدية من دون التطرق إلى الدين الذي حمله العرب إلى العالم .ومع ذلك، إذا أُصرّ على استخدام مصطلح الاستعراب بمعزل عن الجانب الديني، فيمكن اعتباره اهتماماً بـ حياة العرب وحضارتهم وثقافتهم بشكل عام، وثقافتهم وآدابهم، وتقاليدهم وعاداتهم وأساطيرهم، ومعتقداتهم قبل الإسلام– وهذا يدل على أن للعرب حضارة وثقافة وآداباً وتقاليد وعادات وأساطير ومعتقدات تميزهم، خلافاً لمن يزعم أن العرب لم تكن لهم حضارة تُذكر، وأنهم لم يصبحوا أمة ذات شأن إلا بظهور الإسلام. وأود أن أصل – هنا– إلى أنه حين يدرس المستعرب العرب في فترة بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وما بعدها، فإنه يُدرج ضمن الإستشراق، ويخرج من نطاق الاستعراب .وقد يجمع العالم الواحد بين كونه مستعرباً ومستشرقاً في الوقت ذاته، ومن ثم فإن الاستعراب لا يُعد فرعاً من فروع الإستشراق.

«وهناك إمكان واحد نستطيع فيه أن نقول إن العالِمَ الباحِثَ في حضارة العرب قبل الإسلام يمكن أن يطلق عليه مستشرق، وذلك إذ جعل من دراساته في حضارة العرب قبل الإسلام قاعدة ينطلق منها للحكم على جزئية مهما صغرت من الإسلام»[8].

ومصطلح الاستعراب الجديد يظل مفهوما حديثا إذا ما قورن بالإستشراق والشمولية في دراسة الشرق، بحيث لا تتنافر كمصطلحات وتتقارب كمناهج واهتمامات لكن مصطلح الإستشراق في اعتقادنا يعد أقوى دلالة وأشمل تعريفا من مصطلح الاستعراب.

2.2 النشأة والتطور:

لا يوجد تحديد قاطع ودقيق لنشأة الإستشراق أو البداية الحقيقية المنظمة لنشاطه، حيث تتباين الآراء وتتداخل في تحديد بداية نشأة الدراسات الاستشراقية؛ إذ يرى بعض الباحثين أن بدايتها تعود إلى الفترة التي **فتح** فيها المسلمون الأندلس وجنوب إيطاليا وصقلية، وأقاموا هناك دولة إسلامية مزدهرة أرست أسس نهضة حضارية لم تعرفها أوروبا من قبل. وقد دفع هذا التفوقُ الأوروبيين الغارقين في الجهل والتخلف إلى محاولة فهم سر نهضة المسلمين وتقدمهم، فبدأت مرحلة الانبهار بالحضارة العربية الإسلامية. وفي هذا السياق، شرع الأوروبيون في دراسة لغات المسلمين وعلومهم، أملاً في إماطة اللثام عن أسباب قوتهم، أو في الإفادة من معارفهم للنهوض من حالة الجمود التي كانوا يعيشونها. كما يشير عدد من الباحثين إلى أن بعض الرهبان قصدوا الأندلس وسائر مراكز الحضارة الإسلامية في أوروبا أثناء ازدهارها، فتعلموا في مدارسها، واطلعوا على علوم المسلمين وثقافاتهم، وتتلمذوا على أيدي علمائهم في مجالات شتى، ولا سيما في الفلسفة والطب والرياضيات، وتمكنوا من ترجمة عدد من المؤلفات العربية إلى لغاتهم الأوروبية.[9]

ومن ظواهر هذا الاهتمام بهذه المرحلة توجّه الأوروبيون في تلك الفترة إلى ترجمة عدد كبير من أمهات الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية، مدفوعين بشغفهم بالعلوم والمعارف

الإسلامية. ونتيجة لهذا الاهتمام، أسّس دون رايموند الأوّل، رئيس أساقفة طليطلة، مكتب المترجمين عام **1130م**، ليكون مركزاً علمياً تُنقل من خلاله المؤلفات العربية الكبرى في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعي وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق والسياسة إلى اللاتينية. وفي هذه المرحلة أيضاً أُنجزت أول ترجمة للقرآن الكريم سنة 1143م على يد الراهب الإنجليزي هرمان، إلا أن هذه الترجمة لم تُنشر آنذاك **بسبب** خشية الكنيسة من تأثيرها على الرأي العام المسيحي، إذ رأت فيها احتمالاً لنشر المفاهيم الإسلامية بين المسيحيين. ولهذا بقيت الترجمة محفوظة في دير كلوني بجنوب فرنسا، ولم يُسمح بنشرها إلا بعد أربعة قرون تقريباً، عام 1543م.[10]

انطلقت الحركة الإستشراقية في فترة الاستكشافات الجغرافية والسباق بين الدول الأوروبية على تقاسم النفوذ على آسيا وإفريقيا للسيطرة عليها، وأخذت أبعادا أكثر فعالية مواكبة للنشاط الغربي السياسي والاقتصادي، وتشعبت إلى مدارس مختلفة ومتباينة وفقا للتوجهات السياسية والاقتصادية والفكرية للدول الغربية، وهي بلا شك مرحلة اتسمت بالإقبال الكبير على الشرق عموماً، والعالم العربي والإسلامي على وجه الخصوص. بعد هذا الانطلاق الكبير في الدراسات الإستشراقية تطور الإستشراق مع مرور الزمن وتنوعت مدارسه ونظرياته، حتى وصل إلى الطبعة الرابعة التي بدأت في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر (1870 وما بعدها(، متأثرة بالطبعة الثالثة التي تعود إلى القرن الثامن عشر، مستفيدة منها في الكثير من المعلومات والمواد، سواء المنظمة أو العشوائية، التي جُمعت خلال فترة التنويع الأوروبي وفرض النفوذ والسيطرة .ورغم أن الطبعة الرابعة تجاوزت الطبعة الثالثة، إلا أنها تأثرت بها. واستمر هذا التفكير الإستشراقي حتى نهاية الحرب العالمية

الثانية، حيث ظهرت الطبعة الخامسة التي استمرت حتى صدور كتاب إدوارد سعيد في أواخر السبعينات.[11]

غير أن الكثير من الآراء ولأفكار والدراسات التي طرحها الإستشراق عن الشرق بصفة عامة، والعرب والإسلام بصورة خاصة لم تتخلص من الآراء المسبقة –خاصة الجانب الإيديولوجي– حتى في ظل الإستشراق المعاصر والحديث الذي اتسم نوعاً ما بالموضوعية في جوانب كثيرة وقد ساير الكثير من آراء بعض المستشرقين التقليديين في أحكامهم غير المنصفة تجاه العرب والإسلام في قضايا كثيرة – ليس المجال مناسبا لإثار بها في حدود ما أشتغل عليه – لكننا من الحق أن نذكر أنه دفع الانبهار بالحضارة والتاريخ الإسلاميَّين عدداً من المستشرقين إلى التوجّه نحو الشرق والعالم الإسلامي، إضافةً إلى إعجابهم بـ الإسلام القائم على التسامح مع الآخرين، وهو ما لم يكن متحققاً في إطار الديانتين المسيحية واليهودية في تلك الفترات.

وقد قاد هذا الإعجاب بعضهم إلى التعمق في دراسة علوم الإسلام وثقافته، حتى انتهى الأمر بكثير منهم إلى اعتناق الإسلام والخروج من نطاق الاستشراق، في حين آثر بعضهم إخفاء إيمانه لأسباب اجتماعية أو علمية.[12]

في القرن التاسع عشر وما تلاه، أصبح الاستشراق مؤسسة علمية بارزة في الغرب، كما تحوّل إلى أداة معرفية قوية للحكومات الأوروبية في متابعة شؤون الشرق بمختلف جوانبها. وقد تم ذلك عبر المؤلفات والدوريات والبحوث المتعددة في مختلف ميادين المعرفة. فقد وصل عدد دوريات ومجلات الاستشراق إلى نحو ثلاثمائة مجلة دورية، إضافةً إلى مئات المجلات غير المتخصصة التي تنشر بين الحين والآخر دراسات استشراقية، مثل مجلات القانون المقارن، والتاريخ، والعلوم الدينية. وتصدر هذه الدوريات بمختلف اللغات الأوروبية،

وبعضها بثلاث لغات في آن واحد، وتتطرق مواضيعها إلى الشرق بلغاته وآدابه وعلومه وفنونه، سواء القديمة أو الحديثة.

«بجانب ذلك كراسي اللغات العربية بكل الجامعات الأوروبية والأمريكية الكبرى، وقد أنشئت بعض الكراسي في العصور الوسطى، ثم أخذت الجامعات تتوسع فيها، وتعيّن لها الأساتذة والمناهج والشهادات»[13].

ففي هذه الفترة و فترة ازدهار الإستشراق، وتوسعه في أغلب موضوعاته عن العالم العربي الإسلامي، كان نشاط أقسام هذه الدراسات في الجامعات والمعاهد المتخصصة فاعلاً، حيث توافد الكثير من الطلاب للدراسات العليا من الغرب نفسه، ومن الوافدين من مختلف أنحاء العالم كنتيجة للاهتمام بهذا النوع من الدراسات، وهي فترة الاهتمام بالشرق من قبل الاستعمار، وفي ظله أيضاً وهذه هي أخطر ما يوجه إلى الإستشراق من أنه ولد في أحضان الاستعمار ودوائر التبشير والتنصير.

لكن هذه المسألة يجب أن تضع في نصابها الصحيح من حيث أن بعض المستشرقين لم يكونوا عونا للاستعمار وأهدافه، ولم يحركهم في معرفة الشرق، وأهله وثقافته، ودينه، التبشير أو التنصير، وهذا ما سنناقشه لاحقاً في أهداف الإستشراق ودوافعه.

3. علاقة الاستشراق بالفن من الشد والجذب:

الإستشراق واحد من التيارات الأكثر حصورا في القرن التاسع عشر حظيت الدول الإسلامية باهتمام عدد كبير من الفنانين الذين تبنوا أنساقاً وأساليب متنوعة، فركزوا في أعمالهم على موضوع شرقي موحد، يصوّر الشرق كأرض الحرية والغموض والعاطفة، حيث تتشابك العنف والقسوة مع الألوان الزاهية والروائح والأضواء الباهرة. من بين الفنانين الذين استلهموا من روح الاستشراق مؤقتاً يمكن ذكر ديلاكروا وجيروم، في حين ارتبط آخرون

طوال حياتهم بهذا الشرق، الذي أصبح مصدر فضول دائم وملهم بالألوان والأنوار. وعلى صعيد التقنيات الفنية، شهدت الأساليب تطوراً على مدى قرن كامل، من ديلاكروا إلى رينوار، مع استمرار السياق التقليدي بقوة.

ولا يمكن الحديث عن الاستشراق دون الإشارة إلى السفر؛ فعلى الرغم من أن كثيراً من الفنانين لم يغادروا ورشهم، إلا أن أعمالهم تأثرت بما كان يحضره المسافرون من صور ومقتنيات شرقية .ويجب ملاحظة أن السفر في تلك الحقبة لم يكن خالياً من المخاطر، مثل الأمراض الغريبة وغارات قطاع الطرق، ما جعل تجربة بعض الفنانين معيشة حقيقية بين الخيام والنجوم وسط الخيول والجمال. وقد رحبت بعض المدن الشرقية بهؤلاء المسافرين، ووفرت لهم ورش عمل مشابهة لتلك الموجودة في القاهرة، مع تحديد مسارات رئيسية للسفر، أهمها الجزائر والإسكندرية والقسطنطينية.[14]

لقد ولع الغربيون بقصص ألف ليلة وليلة وبكل ما هو شرقي، وقرنوه بالسحر والضوء، وألوان الشمس الساطعة، ولعل أكثر ما يلفت الانتباه في اللوحات الإستشراقية ذلك الميل لتصوير الحياة الشعبية بما فيها من مبالغة في الموضوع العبيد والسحرة، وهذا يدل على اقتناعهم بالشرق ولقد كان لكل من "دانتي، وجوته" وآخرين دورا بارزا في لفت انتباه الغربيين لهذا الآخر الغريب المختلف الذي يدعى الشرق[15].

بعض الفنانين رسموا الشرق من واقع الخبرة العانية بالسفر أو الإطلاع على فنونهم ومخطوطاتهم وقد جاء بعضهم للبلاد العربية بدافع التعرف والترحال، ومرافقا لبعثات دبلوماسية أو علمية أو أثارية وعسكرية.

كرّس المستشرقون فنهم لتجسيد الشرق بكل عناصره من طبيعة وعمران وبشر، مع التركيز على الآثار، والأزياء، والعادات والتقاليد، وأنماط الحياة الاجتماعية، والطقوس

الدينية .وبدأت هذه الحركة في نهاية القرن الثامن عشر، لكنها ازدادت قوة وتميزاً في بداية القرن التاسع عشر.

أثارت الظاهرة الإستشراقية ومازالت تثير جدلا واسعا في مجال الدراسات الفكرية والحضارية فقد عملت هذه الدراسات على تشكيل العقل الغربي والشرقي معا، والإستشراق هو تيار فكري يهتم بالدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، ويشمل في ذلك حضاراته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته، وكان لحركة الإستشراق قوة دفع ورواج أترث في الفكر الإنساني.

مع بداية الاتصال المباشر بين الشرق والغرب منذ القرون الميلادية الأولى يحكم انتشار المسيحية من بلاد الشام" إلى الأقطار الغربية فيما بعد، حمل تيار هذا الاتصال كثيرا من الملامح الحضارية الشرقية وفنونها التي انعكست مع شيء من التغيير على فنون الغرب وعلى الأخص في الفن المسيحي الذي تمثل شرقا في الفن البيزنطي، وغربا في الفن المسيحي اللاتيني[16].

وبعد أن اتصلت الحضارة الإسلامية بأوروبا عبر القرون الوسطى حتى عصر النهضة، انتقل من خلال الفن الإسلامي كثير من ملامح الفنون الأخرى الشرقية التي تأثر بها، وانعكست على آثار تلك الحضارة العريقة في حوض البحر المتوسط ، حيث كانت ذات تأثير بالغ على أوروبا عن طريق إسبانيا وجزر البحر المتوسط والقسطنطينية فيما بعد، ذلك التأثير الذي بدأ واضحا في الفن الأوروبي وأشكاله المتعددة.

وتستمر حركة الاتصال القوية في الإستشراق الفني بامتداد الحضارة العربية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط والأندلس ثم القسطنطينية، فشكل هذا الامتداد المكاني شرقا وغربا، والامتداد الزماني عبر ستة قرون مجالا في الإستشراق الفني الذي أثر بشكل مباشر في الفن الأوروبي في عصر النهضة حتى القرن التاسع عشر، وكان أهم ما

حققته الحضارة الإسلامية في هذا المجال هو نقل الحضارة اليونانية بشكل من التهذيب والإضافة والتطوير إلى أوروبا عن طريق ترجمة علوم وفلسفة اليونان، وكثير من فنونهم التي كانت أساسا لعصر النهضة الأوروبية في إيطاليا.

إن للحضارة الإسلامية دورا في مختلف الفنون الإسلامية وآثار العمارة الشرقية ذات الطابع الإسلامي في مدن أوروبا خصوصا إسبانيا التي كوّن التواجد العربي من خلالها من الاندماج بين الشعوب الأوروبية والشرقية، وخلال هذا الاحتكاك الذي زاد من حيويته الحروب الصليبية والتبادل التجاري والرحلات الإستكشافية. نشطت حركة الإستشراق الفني وتبعا لذلك اقتبس الأوربيون كثيرا من المعالم الفنية وأساليب الحياة الشرقية وانعكس ذلك على إيقاع حياتهم وترجم كثير من المصورين الأوروبيين هذا التأثر في أعمالهم أمثال ليوناردو دافنشي ورمبرانت، وبلغ هذا التأثر مداه خلال اقتباس عملاق الأدب الأوروبي "دانتي" في ملحمة "الكوميديا الإلهية" *كثيرا من أفكار الإسراء والمعراج لأبي العلاء المعري في قالبها الأدبي والفني، وكانت قد شكلت هذه الملحمة مصدرا الإبداعات المصورين الأوروبيين على امتداد الفترة بين عصر النهضة والتاسع عشر[17].

وكان التواصل بين الشرق والغرب يتم عبر **الت**جارة، والحروب الصليبية، والبعثات الدبلوماسية، وكان لشركة الهند الشرقية الدور الأساسي في نقل الفنون (الفن الصيني، الفن الياباني، الفن العربي) إلى أوروبا وقد أثر هذا في الفن الأوروبي كفن" الباروك" L'art Baroque.[18]

وفي أواخر القرن الثامن عشر تمت حملة نابليون على مصر، وقد أحضر معه مجموعة من العلماء والمهندسين والمستشرقين الفرنسيين إلى مصر وكان من نتائج هذا الاتصال استحداث مدارس الدراسات الشرقية على اختلافها ورسم المشاهد الأثرية والحضرية المصرية، ثم كان احتلال فرنسا الجزائر عام 1830 وزيارة ديلاكروا لها عام 1832 مما

كان له الأثر الهمم على الفنانين الغربيين، الذين بدأوا يدركون جماليات الشرق، وأهمية أجوائه وقصصه السحرية والأسطورية كألف ليلة وليلة وغيرها.

وكانت غالبية الفنانين الذين زاروا الشرق من فرنسا وبريطانيا، وكان هناك تنافس واضح بين الطرفين للسيطرة على مناطق النفوذ في المنطقة، إذ لم ينفصل الدافع السياسي عن الدافع الثقافي والفني، بل كان كل منهما يعزز الآخر باستمرار. وقد نتج عن ذلك احتكاك بعض الهواة من الفنانين العرب بهؤلاء الزائرين، وتتلمذتهم على أيديهم. ومن المعروف أن عدداً من الفنانين الأجانب أقاموا لفترات طويلة في البلاد العربية، وأسسوا فيها ورش عمل ومراكز فنية، بل إن بعضهم اعتنق الإسلام واتخذ اسماً عربياً بدلاً من اسمه الأوروبي بعد أن أصبح الشرق الوجهة المفضلة للفنانين الأوروبيين .وانضم إلى الفرنسيين والإنجليز عدد من الفنانين الغربيين الأكاديميين، حتى أصبح الاستشراق ظاهرة فنية غربية متكاملة، وأصبحت أكاديمية الفنون الجميلة في باريس تحت قيادة الفنان المستشرق "جان ليون جيروم".Jean – l'eon gérome "** معقلا للإستشراق في فرنسا، كما أن أكاديمية الفنون الجميلة في لندن قامت بدور نفسه.

إن إنشاء المراسم لعد د من الفنانين المستشرقين قد تطور لاحقا إلى مراكز لتعليم الفنون التي كان تأثيرها على الفنانين المستشرقين أنفسهم مثل: معهد ليوناردو دافنشي في القاهرة وفيلا عبد اللطيف التي أسست في مدينة الجزائر لتكون معهدا ومرسما يساعد المستشرقين الشباب من الفنانين المتفوقين الفرنسيين على الاستفادة من المناخ العربي الأصيل في الجزائر[19].

في عام 1832 زاد الفنان الشهير ديلاكروا Delacroix المغرب، مرفقا لبعثة دبلوماسية لدى سلطان المغرب، وقد دهش لنبل المغاربة وكرم أخلاقهم فزاده هذا حبا للشرق

والرسم الإستشراقي، أما الجزائر فقد قدم إليها مجموعة من الفنانين المستشرقين وأهمهم ديلاكروا (Delacroix)*** ثم فيما بعد، دوشامب، لقد نشر هؤلاء الفنانون الأسلوب الفرنسي في الفن بجميع اتجاهاته .ففي المغرب الشمالي، الذي احتلته إسبانيا (سبتة ومليلية)، بدأ الفرنسيون في تأسيس مؤسساتهم، حيث أسس الإسباني بيير توشي مدرسة للفنون الجميلة في تطوان، بينما أسس مارجويل في الجنوب مدرسة للفنون الفرنسية بهدف تأهيل المبتدئين لإكمال دراستهم في مدريد وباريس.

أما في مصر، فقد شهدت البلاد تأسيس ورش ومراكز فنية للعديد من المستشرقين، وقد تركت مراسم الفنان الفرنسي ريجو انطباعاً قوياً على من رسمهم، ووصف الجبرتي الرسوم الموجودة في مكتبة الحملة الفرنسية على مصر بأنها تستحق الإعجاب. ومن أبرز الفنانين الذين صاحبوا نابليون إلى مصر كان الفنان فيفيان دينون، الذي نشر لاحقاً كتابه المميز المصوَّر بالصور المحفورة (جرافيك).

وظهر كتاب فرنسي آخر هو "وصف مصر" وتوالى بعد ذلك مجيء الفنانين الفرنسيين إلى مصر البلاد العربية أمثال "جرو" وباستلام محمد علي حكم مصر عام 1805م بدأت الاستعانة رسميا بالفنانين والعلماء الفرنسيين والذي سيكون تأثيرهم قويا في بدايات الفن المصري الحديث.

لقد تأثر كثير من رواد التشكيل العربي باللوحة الإستشراقية وعملوا على منوالها من حيث الرسم المنظوري التشخيصي إضافة إلى رسم الآثار والمعالم المكانية والسياحية والتركيز على جوانب مرغوبة لدى المقتني للوحات العربية ضمن مفهوم الإستشراق بمعنى البحث عن إرضاء حاجة المستهلك الأجنبي والعربي إلى ما يسمى فن الشرق[20].

هذا هو الإستشراق في الفن جدل الآخر بالآخر بنوع من الشد والجذب وهي علاقة حميمية أثمرت هذا التلاقي الفكري والبصري ليصبح الفن الأوروبي الرومانسي، مستلهما

من منابع الشرق وليكشف الشرق نفسه فيه في عملية ما زالت مستمرة في فننا العربي المعاصر.

ومع اتصال أوروبا بالشرق الأقصى بداية من فترة الكشوفات الجغرافية نجد أن الإستشراق الفني الأوروبي تأثر خلالها بالفن الهندي وفنون إفريقيا وانعكست الفترة بصورتها الإستشراقية في أعمال الكثير من المصورين الأوروبيين والمحدثين أمثال "سيزان" " وجوجان" و" بيكاسو" وغيرهم.

ويتتبع تأثير الفني بين الشرق والغرب منذ هذه الفترة المبكرة واستمراره حتى وقتنا المعاصر تكمن أهمية الإستشراق وقضيته على المستوى الفني وإذا كان ذلك داعيا لاهتمامات الغرب منذ القرن التاسع عشر بالسبيل العلمي الهادف لما قد يحققه لهم من أهداف تخدم أغراضهم فأنه بالضرورة لابد أن يكون لأبحاثنا ودراساتنا نحن الشرقيين من دور هادف اتجاه هذه الدراسات الإسشتراقية[21].

4. خاتمة:

رغم الأبعاد الاستعمارية والدينية للإستشراق، إلا أنه لم يخلُ أبداً من الفوائد العلمية . فقد قام المستشرقون بجمع المخطوطات العربية والإسلامية وفهرستها، وتحقيق العديد منها وفق أعلى المعايير العلمية في زمانهم، ونشروها بصورة علمية محضة .كما ترجموا آلاف المؤلفات من التراث العربي والإسلامي إلى اللغات العالمية، وقدموا توجيهات للاعتماد على المناهج الحديثة في البحث والدراسة، وعرفوا العالم بحضاراتنا وتراثنا وفنوننا، مسهمين بذلك في تقديم إضافات علمية وثقافية قيمة لا يمكن تجاهلها.

5. الهوامش:

[*]– سورة المائدة، الآية 08.

[1]– ينظر، محمد فتح الله الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، طرابلس، ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1983م، ص 55.

[2]–مازن بن صلاح المطبقاني، الإستشراق، مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الإستشراق، موقع المركز بالإنترنت: www.medinacenter.org.

[3]– محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا– كتاب عالم المعرفة، سلسلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 167، نوفمبر 1992 م، ص 21.

[4]– ينظر، برنارد لويس، الإسلام والغرب، دمشق، بيروت، ترجمة قسم التأليف والترجمة بدار الرشيد، ط1، 1994م، ص41.

عبد الله علي العلياني تعليق: هاجم برنارد لويس في هذا الكتاب ادوارد سعيد وأنور عبد الملك على انتقادهما الإستشراق في بعض أهدافه، وانصب هجوم لويس على ادوارد سعيد واتهمه بالجهل والإساءة، وقد رد بعض المستشرقين على سعيد وجمعت هذه الردود في كتاب (الإستشراق بين دعاته ومعارضيه) صدر عن دار الساقي– لندن. وقد رد ادوارد سعيد أيضاً على منتقديه في كتاب (تعقيبات على الإستشراق).

[5]– ينظر، علي بن إبراهيم النملة، الإستشراق في الأدبيات العربية، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 1993م، ص 18.

[6]– برنارد لويس، الإسلام والغرب، ص 43.

[7]– محمد فتح الله الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها، ص ص 61– 62.

[8]– علي بن إبراهيم النملة، الإستشراق في الأدبيات العربية، ص 31.

[9]– ينظر، محمد فتح الله الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منها، ص ص 63– 64.

[10]– ينظر، المرجع نفسه، ص 65.

[11]– ينظر، وليد نويهض، نهاية الإستشراق، جريدة الحياة، الثلاثاء سبتمبر 1994، ع 11545، لندن، ص 18.

[12]– ينظر، علي بن إبراهيم النملة، الإستشراق في الأدبيات العربية، ص 36.

[13]– السيد أحمد فرج، الإستشراق، الذرائع، النشأة، المحتوى، السعودية، دار طويق للنشر والتوزيع، 1994، ص ص 67– 68.

[14]– ينظر، محمد محمود زقزوق، الإسلام والإستشراق، القاهرة، دار التضامن للطباعة، ط1، 1914، ص1.

[15]– نجيب العقيقي، المستشرقون، ج1، القاهرة، دار المعارف، 1910، ص 101.

[16]– محمد عبد المنعم خفاجي، الإستشراق وأهدافه، جريدة الحضارة القاهرة بتاريخ 1919/3/19، ص5.

[*]– الكوميديا الإلهية (Divine Comedy) هي قصيدة ملحمية ألفها دانتي بين عامي 1308و1321، وتعد من أبرز الملحمات الشعرية في الأدب الإيطالي، ويرى كثيرون أنها واحدة من أعظم الأعمال الأدبية على المستوى العالمي .تحتوي الملحمة على رؤية جبلية مستعينة بالعناصر المجازية لتصوير الآخرة وفق المعتقدات المسيحية.، وتقسم الكوميديا إلى إجراء الجحيم، المطهر، والجنة، ولكن بعض يقول أن هذه الكوميديا التي تعتبر مصدر إبداع معظم الفنانين الأوروبيين هي من أصل عربي.

[17]– سهير القلماوي وأخرون، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1917، ص 27.

[18]– نجيب العقيقي، المستشرقون، ج2، القاهرة، دار المعارف، 1980، ص 302.

[**] – جان ليون جيوم Jean leon geroum (1824–1904) هو فنان فرنسي مشهور، ويُعد من أبرز المستشرقين الذين زاروا الشرق العربي الإسلامي في القرن التاسع عشر، وتتميز رسوماته بطابع تاريخي يجمع بين الأساطير الإغريقية والموضوعات الشرقية.

[19]– عمر عبد العزيز عمر، تاريخ العرب الحديث، ج1، القاهرة، الهيئة المصرية العامة، للكتاب، 1914، ص 17.

[***]– ديلاكورا Delacroix (1798–1863) هو رسام فرنسي من رواد المدرسة الرومانسية، ويمتلك العديد من اللوحات الفنية المحفوظة في متحف اللوفر وغيره من المتاحف. من أشهر أعماله "الحرية تقود الشعب" (1830)، و"سلطان المغرب" (1845)، و"الجزائريات" (1830) ، والتي تظهر فيها تأثره بسفراته إلى شمال إفريقيا.

[20]– ثروت عكاشة، مصر في عيون الغرباء، ج1، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1914، ص170.

[21]– محمد عبد الفتاح عليان، أضواء على الإشتراق، الكويت، دار البحوث العلمية، 1980، ص 27.

6. قائمة المراجع:

القرآن الكريم.

1. برنارد لويس، الإسلام والغرب، دمشق، بيروت، ترجمة قسم التأليف والترجمة بدار الرشيد، ط1، 1994 م.
2. ثروت عكاشة، مصر في عيون الغرباء، ج1، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1914.

3. سهير القلماوي وأخرون، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1917.
4. السيد أحمد فرج، الإستشراق، الذرائع، النشأة، المحتوى، السعودية، دار طويق للنشر والتوزيع، 1994.
5. علي بن إبراهيم النملة، الإستشراق في الأدبيات العربية، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 1993م.
6. عمر عبد العزيز عمر، تاريخ العرب الحديث، ج1، القاهرة، الهيئة المصرية العامة، للكتاب، 1914.
7. مازن بن صلاح المطبقاني، الإستشراق، مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الإستشراق، موقع المركز بالإنترنت: www.medinacenter.org.
8. محمد عبد الفتاح عليان، أضواء على الإسشتراق، الكويت، دار البحوث العلمية، 1980.
9. محمد عبد المنعم خفاجي، الإستشراق وأهدافه، جريدة الحضارة القاهرة بتاريخ 1919/3/19.
10. محمد فتح الله الزيادي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، طرابلس، ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1983م.
11. محمد محمود زقزوق، الإسلام والإستشراق، القاهرة، دار التضامن للطباعة، ط1، 1914.
12. محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا– كتاب عالم المعرفة، سلسلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 167، نوفمبر 1992 م.
13. نجيب العقيقي، المستشرقون، ج1، القاهرة، دار المعارف، 1910.
14. نجيب العقيقي، المستشرقون، ج2، القاهرة، دار المعارف، 1980.
15. وليد نويهض، نهاية الإستشراق، جريدة الحياة، لندن، الثلاثاء سبتمبر 1994، ع 11545.